شاعر اسباني كبير

يتفاخر بنسبه العربي

وهل تعجب ؟ حق لك العجب . عنوان غريب . في عصر غريب . عريقه يتبرأ من عروبته ويتنكف من نسبه ، فكيف بالغريب عنا بلغته ومحيطه ، وعاداته وميوله

شاعر اسباني نابغة ، يتغنى بمجد العرب ، ويكيم في شعره وخطبه وأحاديثه ، متفاخراً بالتحدر من صلبهم ، والانتماء الى صميمهم . هو الشاعر فيلا سانا ! كبر شعراء اسبانيا ، ورئيس ندوة الشعر فيها ، وصاحب ما ينيف على المائة والخمسين مؤلفاً ما بين شعر ونثر

تعرفت اليه في الايام الاخيرة لوجوده في الحاضرة سان باولو ، فاذا بي أمام روح ونابة هي روح الشاعر ، وذهن متوقد مبتدع هو ذهن النابغة ، وقلب أنوف كبير هو قلب العربي . واليك عنه كلمة موجزة كنابغة وشاعر ، وبحثاً مستفيضاً كعربي . وما تخيرت التبسط في عروبته إلا لأبين صلته بها ، واسباب حمايته لها ، وقد استقيت منه ما تراه في هذا الصدد من افادات تاريخية ، هي على ما أعلم حلقة ناقصة في تاريخنا العربي بعد سقوط غرناطة وتضعضع أمر العرب في الاندلس

النابغة

لايقاس النبوغ في الادب بوفرة الانتاج فحسب ، وانما يضاف اليها الاجادة في المبنى ، والتحليق في المعنى ، وفيلا سانا جمع بين الصفتين ، امتيازه بكثرة مؤلفاته ، وتفوقه بجودة كتاباته ، فهو مكثر ومجيد معاً

مؤلفاته المطبوعة مائة وثلاثة عشر كتاباً ، منها خمسة وسبعون ديواناً شعرياً ، واربع وعشرون رواية تمثيلية شعرية ، واربعة عشر مؤلفاً نثريًا . وله الآن خمسة واربعون مؤلفاً ، منها خمسة وعشرون ديواناً شعرياً ، وسبع عشرة رواية تمثيلية شعرية ، وقصتان نثريتان ، ومؤلف يستغرق عشرين مجلداً في وصف سياحته الى اميركا ، وهذه كلها مائلة للطبع

اول كتاب طبعهُ هو ديوان شعر بعنوان « خصوصيات » والشاعر لا يتجاوز اذ ذاك الثامنة عشرة من سنيه ، وبين مؤلفاته جانب كبير موضوعهُ عربي ، فمن رواياته التمثيلية الشعرية « قصر اللؤلؤ » وهي رواية جرت حوادثها في غرناطة على عهد ابن

الاحمر ، ورواية « ابن امية » تناول فيها ما حدث لبقايا العرب بعد سجين عاماً من سقوط غرناطة ، ورواية « في البادية » وهي رواية حدثت وقائعها في الصحراء وصف بها إباء العرب وما للضيافة عندهم من حقوق وله رواية اخرى ماتلة للطبع هي « زفرة المقربي » عنى بها زفرة ابي عبد الله آخر سلاطين العرب في الاندلس ، وبكاءه يوم ودّع غرناطة من أعالي جبل بادول المشرف على حاضرة ملكه وقد قالت له امه عائشة :

« إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال »

وهذه الحادثة هي موضوع روايتي التمثيلية ابن حامد او سقوط غرناطة التي وضعتها منذ نيف وعشرسنوات ولم تطبع بعد

ومن دواوينه الشعرية ذات الموضوعات العربية ديوان « فتون الحمراء » و« ليالي جنة العريف » و« الاندلس » و« دفوف أشبيلية » و« قفير النحل الذهبي » و« باحة الاريج »(١) و« عاشق ليندا راخا » . ومن رواياته القصصية النثرية « انتقام عائشة » و « عبد الرحمن الاخير » و « نخيل الواحات » و « مخالب الغهد » و « برج الاسيرة »

وأروع ما انتجت قريحته روايتا « قصر اللؤلؤ » و« ابن امية » وكلتاهما عن العرب

فاذا عددت مؤلفاته بلغت مائة وثمانية وخمسين مؤلفاً بين منثور ومطوي ، ومنظوم ومنثور ، وهي لعمري مكتبة كبيرة خلقها دماغ واحد في حياة لا تتجاوز الخامسة والخمسين عاماً . فيا لك من حياة قيّمة ، لو حسبت ساعاتها ، لكادت تكون كل ساعة فيها صفحة من النثر او قصيدة من الشعر

الشاعر

قرأت لفيلا ساسا ديواناً شعرياً في موضوعات شتى ، ورواية تمثيلية شعرية هي « قصر اللؤلؤ » . ما انا من المتضلعين من اللغة الاسبانية ، ولكنني تعمقت جد التعمق في تفهم ما قرأته لأسبر روح هذا الشاعر الكبير. أما الحكم على مبانيه فأدع القول الفصل فيه للنقاد وهم يضعون مؤلفاته في مقام سام لبلاغة جملها وجودة تعابيرها وحسن لغتها

اما المعاني فاذا كانت بلاغتها في ايجازها وهي لكذلك فالشاعر محلّق في فضاء فسيح من الخيال ضمن دائرة ضيقة بليغة من الجمل

يتلاعب بعواطفك على هواه ، فتشعر بروحه سرت في روحك ، تحبه هازجاً ونادباً ، باسماً وباكياً ، راضياً وغاضباً ، يحدثك عن عاطفة فتكاد تلمسها يدك ، ويصوّر لك منظراً فتكاد تراه بعينك ، ويصف لك خبراً فتكاد تسمعه بأذنك

(١) لعلها تشير الى الباحة في قصر الحمراء التي كانت تعرف « بباحة الريحان »

بينما تماشيه على ضفة جدول هادئ ، اذا بك معه على شاطئ بحر ثائر ، وبينما انت بقربه على اديم الارض ، اذا به يشب بك الى قلب الفضاء

« قصر اللؤلؤ » مأساة من التاريخ العربي في غرناطة ، ترى فيها كل ما في مزايا العرب من إباء وشجاعة وكرم ، كما تلمس بها الحب العربي مختلجاً فائقاً متقداً ، كل ذلك في قالب من الشعر البليغ الخلاب . تبدأ بقراءتها فتحسب انها كباقي ما وضع الغربيون عن العرب من الروايات ، اسماء عربية لاغير ، خالية من أثر الروح العربية فيها ، ولكنك تشعر بخطأك عند اول صفحة تقلبها فيخيل اليك ان المؤلف عربي والشاعر مترجم

في حياة ابطال الرواية واحاديثهم روح عربية صميمة تتدفق بين السطور ، فكأنك ترشف عصير الخيال العربي في كاس صافية برّاقة من اللغة الاسبانية

تسمع ابن الاحمر سلطان غرناطة يقول للشاعر العربي الذي انشد قصيدته بين يديه : « أشرف تاج على رأس الملك هو الشعر ، ولو كان لقصيدتك ثمن وكنتُ ملك العالم لأعطيتك بكل بيت منها مدينة كغرناطة ، ولكن خزينتي لا تكفي ثمناً لها ، » فتعلم ان الشاعر عنيّ بدرس نفسية العرب واحاط بمناحي طباعهم ، ومثل ذلك في روايته كثير

والشاعر سامي الخيال بعيد غور التصور تلاحظ ذلك في شعره وتلاحظهُ ايضاً في وصفه ، يشغل احياناً صفحة كاملة من روايته ليصف لك كيفية ترتيب المناظر على المسرح فيصوّر لك السقوف والمقاعد والجدران ، وما عليها من نقوش وسجوف وسلاح ، فتجد مؤلفه كاملاً بكل دقائقه مما يدل على تعمقه في درس التاريخ العربي وآثار العرب ، واطلاعه على عاداتهم وحياتهم في الاندلس

وهو سريع الخاطر طويل النفس ، لا توقف مجرى افكاره ضوضاء ، ينظم وصغاره يهرجون من حوله وانين لاعبين . وهو يكثر التدخين ، ولا يهتم كثيراً بالطعام ، وقد يتقضى الليل وهو مكبٌّ على النظم دون ان يفكر بمشائه

وانه لمحبب شديد الاعجاب بالشعر العربي ، وقد طلب مني شيئاً من شعري فقدمت له نسخة من قصيدتي « شاعر في طيارة[1] » المترجمة الى البور تغالية

وكان طريح الفراش فذهبت لعيادته في اليوم الثاني فقال لي : اجلس واسمع

واذا به يتلو عليّ بالشعر الاسباني اربعة اناشيد من تلك القصيدة مترجمة في اكثر من مائة وخمسين بيتاً . فمن هذا تعرف مبلغ تدفقه ، وقوة عارضته وشدة هيامه بالشعر

(١) — « المقتطف » ستنشرها قريباً تامة ليطلع عليها القراء

عبرية الشاعر

غرناطة ، آواه غرناطة ! لم يبق شيء لك من صولتك !
هل نهرك الجاري سوى ادمع تجري على ما دال من دولتك ؟
والنسمة الغادية الرائحه
هل هي الا زفرة نائحه ؟
ما عدت في النهر كسلطانة تجبها في مائه ساطعه
للقبة الحمراء في تاجها وهج ، وللمأذنة اللامعه
آه على امجادك الغائبه
شيعتها بالنظرة الدامعه !
مرت مرور النهر من جمرة واورثتك الروح في غربتك
غرناطة ! ، اواه غرناطة ! لم يبق شيء لك من صولتك !

***

لله حمراؤك ، نحو الاسى وحيدة في الروضة الخاليه !
لم يبق لا زهوة ندمانها ولا صدى اعيادها الماضيه
ولم يعد للحب فيها أنين
ينقله العود عن العاشقين
بينا يجيل البدر الحاظه باهتة في المرمر اللامع
بين أريج الزهر المنتشي وبين شدو البلبل الناجع
وقصرها الخاوي بارجائه
كم غمر الليل بضوضائه !
اذ الجواري خاطرات على سجاده جارية جاريه
اروع ما في الشرق من رقصه تنسجه اقدامها العاريه

***

غرناطة ، اواه غرناطة ! ما انت الا حرب قائمه !
تحمل امراب السنونو الى افريقيا أنباءك الفاجعه
هناك ابناؤك من بأسهم
باكون ، لا باكون من بأسهم

عرّوا من الاغماد بيض انظبي ورشحوا الخيل ببيض السروج
ويمموا البحر فما بدت منك على الافق جبال الثلوج
خرّوا على أوجههم راكعين
وأقفروا من قهرهم صارخين :
« غرناطة ، اواه غرناطة ! صنت فيا للعظم الضائمه » !
فيزفر الموج ويبكي لهم حين يرى أعينهم دامعه !

***

هذه مقطوعات من قصيدة فيلا سباسا في البكاء على غرناطة ترجمتها عن الاباء العرب، وهي لعمري قطع من قلبه وقطرات من روحه . ألقاها يوماً على مسمعي في غرفته، فاذا بالدموع تترقرق في عينيه وهو يلقيها، وما انتهى منها حتى خيّم علينا صمت عميق حافل بمرارة الذكرى ، وثورة الاسى . هي من أروع قصائده وهو مغرم بها يتلوها بصوته الجهوري والقائه الممتاز في أكثر الحفلات التي تقام لاكرامه ، فتنتقل روحه بك مع معانيه من الاسى الى التفاخر، ومن الحماسة الى البكاء

أفلا تشعر وأنت تقرأها او تسمعها انك امام عربي صميم ، يغلي دم العرب في عروقه فيثور متأوهاً على عز اجداده ؟ اوَلا تخيل آخر بني سراج بطل رواية شاتوبريان ، ساجداً بين جدران الحمراء يقبل احجارها ويبللها بدموعه

ما جلست اليه مرة الا شعرت انني مع رجل تربطني به فضلاً عن صلة الادب صلة اخرى هي صلة الميول والمشارب

يحدثك بهجته الحادثة الشعرية في شتى المواضيع ، ولكنه عندما يذكر العرب وامجادهم يتغير فجأة فتحس بالحماسة تملأ جوارحه وتملك مشاعره ، وإن انس لا أنس مجلساً كان فيه معنا خليط من الادباء الوطنيين والاجانب فجثا على ذكر غرناطة وحمراتها، فاذا ببريق يتألق في عيني الشاعر تحول في فيه الى كلمات اخذ يصف بها جمال الحمراء وجلالها بأسلوب شعري خلاب تناول مشهدها عند مطلع الفجر والشمس تدرج من خدرها فتلقي على قبابها وباحاتها فتوناً ساحراً . ثم انتقل الى عظمة الفن في بنائها فرسم لنا منها صورة تعجز عن رسمها ريشة اعظم المصورين ، واذا به يتحول الى ما على الجدران من المقطعات الشعرية العربية التي نظمها ابن زمرك الاندلسي نديم وخليفة لسان الدين الخطيب وهو يروي ترجمتها باعجاب وتفاخر

وكنا سكوتاً من حوله ترتشف وصفه ارتشافاً ، وملتهم كلماته التهاماً ، نصغي اليه فنسمع نبضة قلب عربي تحت ذلك الثوب الغربي

ولا يتبادرنَّ الى الاذهان ان الشاعر يتكلم عن العرب بهذه الحماسة امام ابناء الضاد فحسب ، كلاَّ فهو في مجالسه ومحاضراته وقصائده يشيد بذكرهم ويتغنى بحضارتهم غير موجس من لومة لائم ، أو تهجم مكابر ، ومن رافق حياته في هذه الحاضرة وغيرها من البلاد التي زارها تحقق بنفسه ما تحققته . وعندما قدمت له رسمي وهممت بكتابة كلمة التقدمة باللغة البورتغالية التي يفهمها ، أبى عليَّ إلا كتابتها باللغة العربية التي يحبها

وقد روى لي احد مرافقيه ان حبهُ للعرب بلغ به مرة في مدريد الى التنقل في شوارعها الكبرى وهو مرتدٍ بالملابس العربية . وقد اخبرني انهُ لدى وصوله الى اسبانيا سيسعى بكل جهده لتحقيق فكرة جميلة أوحى بها الصديق النابغة الاستاذ حبيب اسطفان وهي انشاء جامعة عربية كبرى في غرناطة لتدريس كل ما هو عربي من لغة وأدب وتاريخ

اسرة الشاعر وصلتها بالعرب

ما تقاص ظل العرب عن الاندلس ، وسقطت غرناطة وهي آخر معقل بقي لهم ، حتى تفرَّق شمل المسلمين ، وتضعضع امرهم ، فخرج فريق منهم الى افريقيا وفي مقدمته الملك ابو عبد الله آخر ملوكهم ، وبقي فريق في اسبانيا محافظاً على اسلامه ، متعرضاً لاضطهاد الغالبين ، وتنصر فريق آخر هرباً من الاضطهاد ، او تقرباً من اولي الامر

ومن الفريق المتنصر نبيل عربي متحدر من السلالة الاموية يدعى محمداً بن امية وقد دعي بعد تنصره الدُنْ انطونيو مولاي دي قرطبة وڤالور

وكان اباً لثلاثة اولاد ، فرتندو ومارتين ولويس ، وكان الدُن فرتندو وهو وارث لقب الاسرة فتى حر الخلال محبوباً وقد انتخب في مجلس نبلاء غرناطة الاربعة والعشرين في عام ١٥٦٥ أي بعد سبعين عاماً من سقوط غرناطة ، دخل فرتندو — وهو في الثانية والعشرين من سنيه — الى مجلس النبلاء وخنجرهُ في منطقته ، وكانت العادة ان يترك النبلاء سلاحهم عند مدخل المجلس ، وقد ترك الدُن فرتندو حسامه هناك ولكنه أبقى خنجره ، فلم يرق ذلك في عين الدُنْ بدرو داسا رئيس المجلس فوبخهُ بلهجة قاسية على لها اقدام العربي في عروقه فأجابهُ :

— اني لادخلنَّ الى المجلس كما اشاء ، فانا سليل ملوك أمية ، وقد كان لاجدادي في هذه الديار سلطة الامر والنهي ، وعزة العرش والتاج

فما كان من رئيس المجلس إلا ان اغلظ له القول ونسبهُ الى امة البرابرة فكبر ذلك على الدُن فرتندو وعجم كالنمر الهائج فصفعهُ ، حتى اذا ثار ثائر النبلاء وقاموا عليهِ ، جرد خنجره في وجوههم ، واخذ يتقهقر وهم لا يجسرون على التقدم منهُ حتى بلغ الباب فتناول حسامهُ وسار نوًّا الى حي انيازين الآهل اذ ذاك بالعيال العربية

وما هي ليلة وضحاها حتى انضمَّ الى الدُن فرتندو فريق كبير من رجال ذلك الحي الثائرين على الاسبانيين ، فجرد منهم حملة سار بها الى جبال البشرات الواقعة بين غرناطة ومربسة . وفوق هذه الجبال الآهلة ببقايا العرب وجلهم ممن هربوا من الاضطهاد واعتصموا بالكهوف فوق قنن الصخور ، اعلن الدُن فرتندو الثورة على الدولة الاسبانية الناشئة ، ونادى بنفسهِ ملكاً ، فشى تحت لوائهِ جيش عربي لا يستهان بهِ تأجج في صدور افراده نار الحقد على نازعي ملكهم ومقوضي مجدهم والذين بالغوا في الكناية بهم بكل نوع من انواع العسف والارهاق

واول بوادر تلك الثورة مذبحة قام بها المسلمون ، فلم يبقوا على احد من المسيحيين الاسبانيين الناطقين بينهم وفي جوارهم ، وكان ذلك ليلة عيد الميلاد

فجردت السلطة اول حملة عليهم بقيادة المركيز دي لوس ڤيليس فدحروها ، وتلتها حملة ثانية بقيادة المركيز دي مونديخار فلم تقوَ عليهم ، ولما رأى الملك فيليب الثاني استفحال الامر استدعى الجيش الاسباني المقيم في نابولي وسلم قيادتهُ الى اخيهِ الدون خوان دي اوستريا ، فزحف هذا عليهم بجيش جرار كان الفشل نصيبهِ ايضاً ، وكان من قواد هذه الحملة الضابط فيلاسانا (جد الشاعر لابيه) ولكن الاقدار شاءت ان تشدَّ ازر الاسبانيين فوقعت الفتنة بين صفوف العرب ، واضعفت شوكتهم

فقد كان للدُن فرتندو العربي القائم بشؤون المسلمين ابن عم يدعى « ابن اميه » ما زال طامحاً الى ان يكون هو القابض على صولجان العرب والمجدد لخلافة المروانية حتى حدثت بينهُ وبين الدُن فرتندو منافرة سببها المرأة ، فاغرى احدى جواري ابن عمهِ على قتله وهو نائم وذلك بوضعها كمامة على فمهِ وعنقهِ وتسهيلها دخول ابن عمهِ ورفيق له يدعى ابن « الوزير » ففتكا بهِ في قصره في « الاوجار » بعد ان ملك نحو ثلاث سنوات . فانتهى الملك بعد موت الدُن فرتندو الى « ابن اميه »

فاستأنف القتال ولكن الاسبانيين اغروا بعض رجاله بالمال فغدروا بهِ في مغارة برشولس وقتلوه طعناً بالخناجر . فتفرقت كلمة الثوار وتضعضعت قوتهم فتمكن الاسبانيون منهم بعد حرب سجال دامت اربع سنوات

وقد اعتقلوا والد الدُّن فرتندو في مدريد عند انتقاض ابنهِ ، ولكن الملك عفا عنهُ وعن اولاده بعد موت الدُّن فرتندو وذلك بوساطة الدوق دي ميسا حفيد القائد الاكبر فتدشلف جونزلف دي قرطبة وصديق الاسرة القديم فرجع لقب الاسرة الى الاخ الثاني الدُّن مارتين ولكن هذا باع لاخيهِ الثالث الدون لويس كل عقاراتهِ فصار لقبهُ الدون لويس دي اينيسا وغواروس ولا تزال من سلالتهِ الى الآن في اسبانيا اسرة المركيز دي اينيسا وهي من الأسر الاسبانية العريقة ، أما لقب الدون مارتين الاخ الثاني فأصبح مارتين دي ڤالور فقط وهو اسم عائلة والدة الشاعر الاسباني الذي نحن بصدد الكلام عليهِ

أما والد الشاعر فهو متحدر من سلالة الضابط فيلا سباسا الذي قدم مع الحملة الاسبانية من ايطاليا وحارب الدون فرتندو كما سبقت الاشارة

ومن غرائب الصدف أن يقترن بعد اربعة قرون سليلا عدوين لدودين فينتج من ذلك ظهور شاعر كبير تفاخر بهِ بلادهِ ويفاخر هو بنسبهِ العربي ويبكي على امجاد العرب الغابرة

اما ولادة الشاعر فكانت في الاوجار في نفس المنزل الذي قتل فيهِ الدون فرتندو جدُّهُ الاكبر العربي الاسلامي

***

وكانت والدتهُ لا تزال محافظة على الغطاء الذي قتل عليهِ الدون وهو من الدمقس أخضر اللون منسوج بالفضة ولكن الشاعر ارتداهُ مرة في اعياد المرافع وكان في الرابعة عشرة من عمره فرآه رجل بلجيكي لحظ قيمتهُ فعرض عليهِ بيعهُ منهُ فأبى ولكن الحاح الرجل دفع الشاعر الى اعطائهِ ذلك الاثر النفيس بلا مقابل فافتقدتهُ العائلة ولم يبق منهُ سوى قطعة صغيرة لا تزال محفوظة الى الآن

وقد أوحت حادثة الدون فرتندو الى الشاعر مأساتهُ التمثيلية الخالدة « ابن امية » وهي تحفة من تحف الادب الاسباني وصف بها تلك الوقائع باسلوبهِ الشعري العالي ويبكي بها العرب ما شاء لهم البكاء ، وقد مرَّ بك منها في هذا المقال قطع من قصيدتهِ التي يندب بها غرناطة ، وهي من شعره الكثير الذي تتداوله ألسن الرواة في كل بقعة ينطق اهلها بلغة الاسبان

« مجلة الشرق » البرازيل فوزي معلوف